الزواج في الأغنية الشعبية: مراحل تحقيقه وتأثيراته الإجتماعية

عبد القادر نطور، جامعة سكيكدة، الجزائر

ملخص

تعد الأغنية الشعبية نوعا مهما من أنواع الأدب الشعبي عموما، والأدب الشعبي الجزائري خصوصا. لقد لاحظت أن دراسة الأغنية الشعبية في الجزائر لم تحض كثيرا باهتمام الباحثين، مع أنها تتناول قضية اجتماعية مفصلية في حياة الفرد والأسرة والمجتمع. انطلق المقال من هذه الأهمية، ثم تدرج في تناول الجزئيات أو الخطوات الآتية، وهي خطوات تؤطر هذا الفعل في حياة المجتمع الجزائري عموما، وفي منطقة الشرق الجزائري خصوصا. أما الخطوات فهي كالآتي:

أولا – الاستعداد للزواج نفسيا واجتماعيا وماديا؛ •

ثانيا – البحث عن الزوجة فرديا وأسريا؛

ثالثا– المهر وحيثياته في الشرع وفي التقاليد؛

رابعا– الخطبة ومتطلباتها الاجتماعية؛

خامسا – العرس، بوصفه الباب الأخير للدخول إلى عش الزوجية.

والمقال بعد ذلك اعتمد على نصوص أساسية من الأدب الشعبي، وبخاصة في الشرق الجزائري.

Abstract

Folk songs are one of the most important types of popular literature in general, particularly so in Algerian. The study of the folk songs in Algeria has not been tackled adequately by researchers, despite the fact that it deals with very important social issues in the life of the individual as well as the family and society at large. This article builds on this importance and elaborates through dealing with a set of steps which constitute a framework of action in the life of Algerian society in general, and in especially the region of Eastern Algeria:

1. The psychological, social and material preparation for the marriage ceremony.
2. The search for the bride individually and with the help of family.
3. The dowry and what relates to it in religion and customs.
4. Affiance and its social requirements.
5. The marriage ceremony, regarded as the last door for entry in the conjugal life.

The article makes reference to basic texts from the folk literature, especially in Eastern Algeria.

❖❖❖

الحياة الاجتماعية والأغنية الشعبية

تعبر الأغنية الشعبية عن كل مناحي الحياة، وهي حلقة متصلة ترتبط بالتقاليد والقيم والعادات وتجسد درجة التحضر والتلاحم والتعبير عما تجيش به الحياة. وقد ركزنا في هذا المقال على ظاهرة نالت اهتمام الدارسين من مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، وهي ظاهرة الزواج باعتبارها ظاهرة عامة تعكس طقوس مجتمع ما ودرجة تطوره.

وفي هذا الإطار، تؤكد الدراسات النظرية والأمبريقية لهذه الظاهرة أن الأغنية الشعبية في غالب الأحيان تتمحور حول النقاط التالية، وهي المراحل التي تتوج بالزواج: الاستعداد للزواج؛ البحث عن الزوجة؛ المهر؛ الخطبة؛ الجرية؛ العرس؛ الزواج.

والجدير بالذكر أن الدراسات التي تناولت هذه النقاط قد أكدت جملة من النتائج التي ترتبط بثقافة المجتمع المحلي، ومدى انغلاقه أو انفتاحه على المجتمعات الأخرى. كما أكدت هذه الدراسات العلاقة الجدلية بين الاختيار وتدخل الأسرة، وصفات العروس، وموقف العريس والإجراءات المتبعة للقيام بهذه العملية.

وعلى أية حال، فإن الأغنية الشعبية قد تناولت على نحو واسع ظاهرة الزواج بمختلف مراحلها، وقد جاءت هذه الأغنية في ألفاظها ومضامينها وطريقة أدائها مرتبطة بالعوامل الآتية: الثقافة المحلية، درجة تحضر المجتمع، مدى ارتباط هذه التحضر، تغايره، درجة تقسيمه للعمل، مدى اعتماده أو ابتعاده على روابط القرابة، مدى تمسكه بالعادات والأعراف التقليدية، مدى تأكيده للحرية الفردية في الفعل أو الاختيار.

وهكذا تقيس هذه المتغيرات درجة تحضر المجتمع وكيف تتحكم البيئة الاجتماعية في الزواج بأدواره المختلفة، وفي هذا السياق تعتبر الأغنية تجسيدا صادقا لما يدور في البيئة من علاقات وتفاعلات علاوة عن أهمية الضبط غير الرسمي. ومن هنا يظهر جليا أن ظاهرة الزواج هي جزء لا يتجزأ من البناء الثقافي، وهي تعبير عن علاقات معينة في إطاري، الزمان المعيش والمكان الاجتماعي. وعلى هذا اعتبر الأدباء هذه الظاهرة بمثابة الرابطة التي تحافظ على استمرار المجتمع ونظروا إلى الأغنية الشعبية على أنها التوصيف السليم لخريطة التفاعلات والتبادلات داخل المجتمع. ولتوضيح هذا أكثر نحاول في بقية المقال التعرض إلى العناصر الخمسة المشار إليها سابقا.

أولا : الاستعداد للزواج

الزواج هو الوسيلة الشرعية والقانونية لبناء الأسرة التي هي اللبنة الأساسية في المجتمع، ومن خلاله تتنامى الأسرة الصالحة للزواج، يتطلب الرضا والعشرة الحسنة والتعاون، والشعور بالمسؤولية بين الزوجين، وهو سكن نفساني بين الرجل والمرأة، تستريح فيه النفس، ويطمئن به القلب، وهو أمر شائع ومقرر في جميع أنحاء العالم، فعلى الرغم من مظاهر الصراع الذي ينطوي عليه الطريق إلى إنجازه، وتغير أهدافه ووظائفه ومعانيه من مجتمع إلى آخر، وكثرة وقوع الطلاق نتيجة الصراع في بعض الأحيان، فإن الناس مع ذلك يتزوجون ويرجع ذلك إلى أن التوقعات المعيارية تنظر إلى الزواج كموقف أو كحالة مناسبة أو مفضلة ومطلوبة، ومهما كانت التعقيدات والالتزامات التي تصاحبه مثل الاختيار، وحفل الخطبة، وعقد القران، والبحث عن مسكن إلى جانب كثير من المتطلبات المادية والمعنوية التي تصاحب عملية الزواج (وأن الذين يبقون بدون زواج قلة في معظم المجتمعات)[1] فإن الزواج مع ذلك يؤدي وظائف عديدة لكل من الفرد والمجتمع.[2]

ولكل أمة تقاليدها وأعرافها في الزواج (وكانت للعرب في الجاهلية تقاليد هذبها الإسلام وصقل بعض ما فيها من جفوة الأعراب، وخشونة الصحراء، وغلظة القلوب).[3]

ويعد الزواج من أهم المناسبات التي يمارس فيها المجتمع مختلف أوجه إبداعه الفني، كما أنه وسيلة مباشرة من وسائل التأكيد الاجتماعي، والزواج في أي مجتمع تحكمه "عادات وتقاليد تمارس فيه مأثورات تناقلها الشعب جيلا بعد جيل، كل جيل يضيف شيئا جديدا أو يحذف أشياء حتى تصبح مأثورات متناغمة مع حياته التي يعيشها".[4] والزواج كظاهرة اجتماعية يخضع إلى قوانين الحياة الاجتماعية ككل وتمارس طقوسه وتقاليده وفق إطار ينسجم مع المستوى الاقتصادي والفكري للمجتمع. ويختلف سن الزواج من منطقة إلى أخرى، فالزواج في الريف يكون مبكرا بينما يكون في المدينة متأخرا.

ومن ناحية أخرى، فان للزواج علاقة بالأرض وأهلها، فقد "كانت القيم الأساسية في حياة العروسين مرتبطة بالأرض أيضا، وهي تتخلص في قيمتين أساسيتين: المهارة في العمل والقدرة على إنجاب الذكور".[5]

و الزواج المبكر في الريف أملته ظروف اقتصادية واجتماعية تتحكم في نسيج العلاقات الاجتماعية ككل ومن هذه الظروف:

- الأعمال الزراعية الشاقة بالوسائل التقليدية التي يقوم بها سكان الأرياف والتي تتطلب المزيد من الأيدي العاملة للتغلب على قسوة الظروف الطبيعية والمناخية.
- حرص الفلاح دوما على كثرة الإنجاب وخاصة إنجاب الذكور حيث إن الزواج عندهم يكن فقط صلة بين رجل وامرأة، صلة تهدف إلى أن تجعل الشهوة شرعية، بل على أنه صلة بين الآباء والأبناء الغرض منها حفظ الجنس وشد إزره جيلا بعد جيل.
- حرص الفلاح أيضا على تزويج بناته مبكرا خوفا من العنس وتخفيفا للنفقات.
- يدفع الفلاح ابنه الوحيد إلى الزواج مبكرا لكي تقر عينه برؤية أطفاله وهو على قيد الحياة وليطمئن إلى أن نسله لم ينقرض بل يتجدد عن طريق أحفاده وهذه خاصة رئيسية عند العرب.

لكن الصورة التقليدية للزواج تغيرت وتحسن أداء تنفيذها بفضل التطور الذي عرفه المجتمع الجزائري، فلم يعد الرجل يحمل العصا ويتسلل إلى قبيلة أخرى ليخطف منها فتاة جميلة من خيمتها ويحملها بعيدا عن طريق "الاغتصاب الساباني"،[6] بل صار يحمل هدية ثمينة بدل العصا إلى والد الفتاة التي يرغب فيها، وبذلك حل الزواج بالشراء. إن صح هذا التعبير. محل الزواج بالسبي، وأصبح اليوم يعد مزيجا من السبي والشراء. وحتى في الريف تطور الزواج، لم يعد الزواج البكر هو الصفة الغالبة وأصبح من الصعب أن يتزوج شخص قبل بلوغه الخامسة والعشرين.

ويتم الزواج بمنطقة الشرق الجزائري حسب الطريقة التقليدية بموجب اتفاق بين الطرفين لقاء المهر الذي يجري عليه الاتفاق وتقام فيه جميع العادات المتعلقة بالزواج. ولا تختلف مواسم الزواج في منطقة الشرق الجزائري في الغالب عن غيرها من مناطق القطر الأخرى، كما

أنه لا يوجد اختلاف كبير بين الزواج في المدن والريف، ومعلوم أن أولى خطوات الزواج هي البحث عن الزوجة.

ثانيا : البحث عن الزوجة

إن مشروع الزواج في عرف علماء الاجتماع يشمل مرحلتين أساسيتين، المرحلة الأولى: الخطبة، والثانية: مرحلة العرس.

وعلى الرغم من أهمية المرحلة الثانية وخطورتها فإننا نعتقد أن مرحلة اختيار الزوج أو الزوجة بعضهما البعض هي من أهم مراحل تكوين أسس الحياة الزوجية وأعظمها تأثيرا، نظرا لما يترتب عليها من استقرار في الحياة الزوجية أو عدمه في المستقبل.

ولما كانت مسؤولية اختيار الزوجة تقع على عاتق الأم مباشرة فهي تقول:

((عامين ونا نمشي على شطوط لبحور[7]
نلهط على لعرايس بنات الأصول[8]
عامين وانا نمشي على شطوط الواد
نلهط على لعرايس بنات الجواد
لالا لعروسة قالولي سمراء
ما سمراء غير لعسل كتتحط للكبرا[9]
عامين ونا نمشي والمال في الصرة[10]
نلهط على لعرايس واللي مها حرة[11]
عامين ونا نمشي حافيه[12]
نلهط على لعرايس وللي صافية)).

فالأم بمشاركة الأب في تحمل جزء من هذه المهمة تبحث عن زوجة لابنها، من قريتها أو من القرى المجاورة لها، وهي غير مستعجلة، عاملة بالمثل الشعبي القائل: "زواج ليلة تدبيرتو عام". إنها تبحث عن ابنة الأصول، وحتى تطمئن إلى حسن سلوك هذه الفتاة المختارة تنظر إلى سيرة أمها، مطبقة بذلك المثل الشعبي "قلب البرمة على فمها تخرج البنت لمها" وكذلك يجب أن تكون هذه الفتاة (صافية) أنها ذات شرف وعفة.

وتمر الفتاة المرشحة للخطبة بمراحل فحص وقتية لقوامها وجمال وجهها، واستنطاقها لمعرفة إذا ما كان هناك عيب في نطقها أو رائحة في فمها، إلى ما هناك من أشياء تتعلق بخصائص الفتاة الجسدية. وقد يتوسع الفحص حتى يصل الأمر إلى طلب رؤية الفتاة المرشحة وفي الحمام للاطلاع عن كثب على كل ما يخصها لملاحظة إذا كان في الفتاة عيب غير ظاهر.

ويحرص الشاب وأهله على أن تتو فر في الفتاة التي وقع اختيارهم عليها بعض الخصائص أهمها:

المنبت العائلي: فالمنبت العائلي يلعب دورا كبيرا:

(عامين وانا نمشي على شطوط لبحور

نلهط على لعرايس بنات الأصول)

وكذلك تحرص كل عائلة على تزويج أبنائها من عائلات ذات وضع اجتماعي مشابه، ومن ذوات الأخلاق والسمعة الطيبة:

(عامين وانا نمشي حافيه
نلهط على لعرايس واللي صافيه)

ويغلب على الفتاة المخطوبة الحياء ويحجبها الخطر، لا سيما إذا كانت عذراء لم يسبق لها الزواج، فهي هاربة من وجوه القوم، أو مختبئة وراء الستر أو لاجئة إلى أمها تناجيها، أو مطمئنة إلى إحدى صويحباتها تبث إليها شكواها، إن لم يكن الخاطب قد وافق هواها أو ناثرة أمامها حبات قلبها إن كانت به تبلغ مناها، وإذا نظرنا قليلا إلى ماضي الزواج في هذه المنطقة فإن أغلب الأحوال لا ترى الفتاة الشاب الذي يتزوجها إلا ليلة الزفاف فما عليها إلا الخضوع والانصياع لعادات الأهل والمنطقة جميعا.

ثالثا : المهر

بعد انتهاء مهمة الأم تبدأ المفاوضات بين أهل الشاب وأهل الفتاة التي وقع عليها الاختيار فيشكل أهل الشاب وفدا للتباحث مع أهل الفتاة حيث يبدأ أحدهم الحديث مضمنا حديثه آيات قرآنية، ثم يقوم بطلب الفتاة لابنه أو قريبه.

ويتم الاتفاق على قيمة المهر الذي هو مبلغ من المال يدفعه طالب الزواج لوالد الفتاة لقاء زواجه من ابنته، ومقداره يختلف بين المدينة والقرية ومن منطقة لأخرى، ومن عائلة إلى أخرى، حسب القدرة المادية، لكن المعدل هو ثلاثون ألف دينار أو ما يقارب ذلك زيادة ونقصانا يدفع لأهل الفتاة (مهرا) لتجهيز العروس وبعد الاتفاق على المهر مباشرة يتم الاتفاق على الأغراض والتجهيزات (الجهاز) التي تطلبها العروس.

وهذه المطالب عادة محدودة ومتشابهة إلا أن الوضع الاجتماعي للطرفين يجعل ذلك خاضعا لبعض التعديل ومن هذه التجهيزات ما يخص العروس مباشرة وتعود ملكيتها لها شخصيا مثل الحلي (الصيغة) وحلي العروس مؤلفة عادة من الصوار (المقياس) الذي في المعصم والسلسلة، قرطي الأذنين (المناقش) والخاتم.. الخ.

ومن الأشياء التي تخص بيت الزوجية وتكون ملكيتها مشتركة بين الزوج والزوجة هي الفراش المصنوع من الصوف والأثاث والنحاس حسب الاستطاعة ... وبعد الانتهاء من إعداد كل ما يتعلق بالمهر (الشرط) الرئيسي تقريبا لإتمام الزواج، يحدد موعد الخطبة التي يقوم العريس فيها بإلباس خاتم الخطبة لخطيبته.

رابعا: الخطبة

الخطبة عبارة عن حفلة مسائية يقيمها العريس في دار عروسه، والغاية منها بالدرجة الأولى إعلانية لكي لا يتقدم خاطب آخر لطلب يد الفتاة. ومن ناحية أخرى فإن الخطبة هي عبارة عن إبرام اتفاق أو معاهدة بين جهتين (أهل العروسين) يحضره عدد كبير من الشهود، وأخيرا تظاهرة اجتماعية يمارس فيها الشعب بعضا من ثقافته.

يقوم العريس بدعوة أصدقائه وجيرانه المقربين إليه. ويكون بانتظار الجميع طاولات جمعت من بيوت الجيران والأقرباء والتي تزين بأنواع الطعام والشراب التي قام أهل العريس بإعدادها ودفع نفقاتها. والخطبة من حيث مظاهر الفرح لا تعدو أن تكون عرسا صغيرا حيث لا تخلو من الغناء والرقص. ويتناسب عدد الحضور في كل خطبة ومدة الحفل والإكثار من مظاهر الفرح مع ظروف البئة ومع القيمة الاجتماعية للعريس والعروس وأهلها. وتعتبر الخطبة عقدا معنويا قلما تتوسع إلا في الأحوال النادرة، وفي المدينة نجد حفلات الخطوبة صارت تقتصر على الأهل والأقارب فقط.

خامسا : الجرية

الجرية وهي الهدية التي تقدم من طرف العريس إلى العروسة وتحضرها عادة قريباته وجيرانه، وتحتوي في أغلب الأحيان على الأشياء التالية: الحنة، الشموع، المناديل (المحارم)، قبقاب، حقيبة متاع بيضاء اللون (حايك)، خمار، ساعة يد، فخذ لحم الخروف، فاكهة وحلويات.

سادسا : العرس

قلما تطول فترة الخطوبة إلا للزمن الذي يستغرقه إعداد الجهاز وهو بسيط في القرى ومعقد في المدن. ويتم العرس في بيت العريس حيث يلتقي المدعوون على موائد الأكل والشراب التي عرفوا جانبا منها في الخطبة، لكنها تكون هذه المرة حافلة أكثر باللحوم والمآكل. وفي يوم العرس يجتمع الأطفال ذكورا وإناثا منذ الصباح حول المغنيين الشعبين والعازفين، ويرافقون الوفد الذي يذهب إلى بيت العروس حيث يقضون مدة من الزمن ثم يعودون بعدها إلى بيت العريس، ومعهم العروس، حيث يستمرون إلى منتصف الليل عندها يكون التعب قد نال من الكثير منهم، فينصرفون إلى بيوتهم. وترافق الأعراس كثيرا من العادات والتقاليد قديما وحديثا، منها ركوب العروس فرسا في القرية وهي لابسة ثوبا أبيضا طويلا واضعة على رأسها خمارا، لكن هذه العادة قلت في السنين الأخيرة واستعين بالسيارة وبالمشي على الأقدام. وترافق هذه المراسيم أغاني كثيرة تحتاج إلى مئات الصفحات لو أردنا كتابة كل الأغاني التي تغنى في عرس واحد.

وإذا علمنا أن لكل قرية أغانيها الخاصة التي تتفق مع أغاني القرى الأخرى في بعض الخصائص فقط، استطعنا أن نكون فكرة صحيحة عن كمية الأغاني. أما من حيث النوع فهي إجمالا تمثل الفطرة والبساطة، والصراحة، والخشونة كذلك في بعض الأحيان، والواقع أنها ألوان

وأشكال يصعب جميع جزئياتها . وترافق الأغاني العرس من بدايته إلى نهايته منطبعة بالمواقف المختلفة للعرس آخذة أشكالا شتى من الكلمات والألحان، وسنقتصر هنا على بعض النماذج منها ولتكن بدايتنا مع الأغاني التي تقال عند الحناء التي درجت العادة أن تكون في اليوم السابق للعرس حيث تجتمع الفتيات في بيت العروس ويشتركن معها بالحناء ويغنين خلال ذلك أغاني كثيرة ومتنوعة كلها تدور حول الحناء منها :

صلو اعلى محمد وزيدوا على الرسول[13]
وحبيبي محمد خيار ما نقول[14]
صلوا على محمد يا النبي العربي
هذا فرح مجدد كمل يا ربي[15]
صلوا على محمد وزيدوا على الرسول

نلاحظ هنا وفي كل الأغاني تقريبا أنها تبدأ بالتبرك بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ذي النسب العربي الأصيل والذي تعود العرب أن يفتخروا به في أي مناسبة سعيدة أو أي فرح لكي يبارك الله في أعمالهم، والتضرع إلى الله بإكمال الفرح بكل خير، ويستمر في التسليم على النبي الذي اختاره الله من دون المخلوقات؛ ثم تنتقل هذه الأغنية إلى وصف الحنة.

الحنة التي طلعت وطلعت ضاويا
اجملوا يا حبابوا الشتلة الغاليا
الحنة جديدة.

فالحنة التي بلت في الصحن الأخضر لكي تحني بها العروس وجميع المعازيم، وهذا ما يدل لنا جليا على متانة علاقات الصداقة والروابط العائلية المتينة ووضع الحنة في يد العريس يعد تعبيرا عن الفرحة في يوم عرسه، ومن الأغاني التي تدل على ذلك نذكر:

أمي يا نة الحنة نضرت في يدو[16]
و يحني لعريس في حرمة خوتوا واجدادوا[17]

لقد خرجت الحنة في يد العريس والذي يحني بها وسط أهله، وأجداده، وهذا له دلالة على امتداد العرق حتى أن الجد يحضر لعرس حفيده. ثم تمضي الأغنية بعد ذلك في تعداد صفات العريس، وهو جالس بين أصحابه مشبهين إياه بالعسل والتمر والحلو، وشهد النحل، وهي من الأشياء المتوفرة لدى القروي بكثرة، والمفضلة لديه كذلك:

يا خويا لعريس يالعسل مع التمرة[18]
قالوا لي كحلة ونا مش كحلة
يا خويا لعريس يا شهد النحلة

و بالنسبة لحنة العروسة نلاحظ أن هناك أغاني كثيرة نورد منها هذه المقطوعة:

أربح اربح يا رابح
و الفال يقول إن شاء الله[19]
و تربح مرت وليدي
و تربي لولاد إن شاء الله
واش اعجبني في لحنينه
اعجبني نوارها
هذي مرتك أوليدي

ومن لبنات ختارها
الحنة لحنينة وجات من مكة سايرة[20]
تحني بها العروسة وحبابها دايرة[21]
الحنة لحنينة جابوها العربان[22]
تحني بها العروسة صباع الغزلان[23]

إن أول وأهم شيء استهلت به هذه الأغنية هو كلمة الربح، و البشرى بالفأل ولتفرح أم العريس بزوجة ابنها التي ستربي الأجيال الصالحة، وهذه دعوة صريحة للإنجاب وضرورة تكوين بيت تغمره بسمة الأطفال وصراخهم مما يزيده جمالا وبهاء.

وبعد وصف العروسة تتبرك المغنية بوصف الحنة التي جاءت بها من مكة لتحني بها العروسة، وهي في وسط أحبابها وقريباتها ،وهذا يدل على التمسك بالدين الإسلامي وبالأماكن المقدسة (مكة) التي هي عندهم في الشرق الجزائري عامة رمز الأصالة والسمو الروحي،وأغاني الحناء كما ذكرت كثيرة وكلها تشبه هذه النماذج.

سابعا : الزواج

وإذا التقينا مع العروسة في يوم العرس من بيت العروسة إلى بيت العريس ودخلنا البيت مع الفتيات اللواتي يحطن بالعروسة ويغنين لها كثيرا من الأغاني لا يمكن لنا حصرها، نورد منها هذه الأغنية التي تقوم النسوة بغنائها وهن في بيت العروسة:

انسابنا الحرار سرحونا نروحو[24]
أولادنا يبكيو والبقرات بطحطحو[25]

و عندما يقترب موكب العروسة من دار العريس يقمن يغنين:

يا أم العريس الفرح جاك
هاي لالا لالا شرعي البيت[26]
يا أم العريس هاي لالا لالا

يخاطب هذا المقطع من الأغنية أم العريس قائلا: إلى أين أنت متجهة والفرح قد جاءك بوصول زوجة ابنك إلى بيتك الذي زادته بحلولها نورا وبهاء هذا أمر للأم لتفتح باب دارها لاستقبال العروسة وتفرح لقدومها وبحلولها تحل البركة والخير، تلك العروس ذات العيون السوداء التي جاءت قاصدة بيتها الذي ستستقر فيه وتكون أسرة تسعد بها هي وقريباتها. وتستقبل العروسة بالزغاريد والبارود والغناء والترحيب:

يا مرحبا بولاد سيدي طلوا جماعة[27]
طلوا جماعة وسلوا سيوفهم لماعة
كي حطوها فوق المطرح لا بات تفرح[28]
شوف لمايمة كي عادت تفرح[29]
كي حطوها فوق الكرسي لا بات تمشي
شوف لمايمة كي عادت تبكي

كي حطوها فوق السرير سمسم وحرير
يا دار بوها بقاو على خير
كي حطوها فوق العود ويشامق مجبود[30]
يا دار بوها ارميو البارود
كي حطوها فوق البابور شرقت لبحور
فاطمة الزهراء بنت الرسول

وهذا النوع كثير وشائع من الصعب إحصاؤه، ولا بد أن نعرف أن هناك أغاني شائعة أو مطالع لأغاني يتقنن في إتمامها المغنون والمغنيات في كل قرية وعند كل واحد من المغنين أو واحدة من المغنيات وإن أكثر هذه الأغاني تلح على الخصال الحميدة والصفات الحسنة والجميلة في العروسة.

و إذا كانت الأغنية السابقة تغنى عند وصول العروسة إلى بيت الزوجية وكذلك في المساء تغني النسوة الأغنية الآتية عند تفقد (الشورة) :

يا مرحبا بعروسنا يا مرحبا يا مرحبا
يا مرحبا بقندورتها الحمرا يا مرحبا[31]
يا مرحبا بقطفتها المحروجة يا مرحبا[32]
يا مرحبا بشورتها يا مرحبا[33]
يا مرحبا بحوايجها يا مرحبا[34]

وفي لحظات راحة من الرقص والغناء تتم عملية إعلان الهدايا، وذلك بعدما تتفقد النسوة الهدايا التي تأتي من أهل العروسة داخل البيت فإن المدعوين الآخرين يقدمون هداياهم علنا وتسمى (العون) والهدايا سداد متبادل، لذلك يتولى صاحب صوت عال إعلان الهدايا فيقول:

واين لحباب واين لصحاب[35]
واين من جانا بالخير[36]

ولما يعطي النقود ليضعها في المحرمة (المنديل) الحمراء يقول: "فلان أعطى كذا من المال كثر الله خيرو ويخلف عليه". وتستمر الاحتفالات حتى منتصف الليل حيث يتفرق المدعوون بعد أن يعرب كل منهم عن فرحته ويدعو للعروسين بقوله (مبروك عليكم). وتعد هذه الليلة امتحان شاق وتجربة جديدة للعروسين حيث لم يسبق لأحدهما أن خالط الجنس الآخر قبل ذلك.

وقد درجت العادة في بعض القرى أن يدخل العريس إلى البيت وسط الهلاهل والأهازيج ويظل الجميع ينتظر خروجه ويخرج وقد حقق مآربه، وحينئذ تلعلع العيارات النارية في الجو وتتعالى الزغاريد مهنئة له ويظهر البشر والانشراح على وجود ذويه وأصدقائه.

وفي الصباح الباكر تجتمع النسوة ويغنين وهن يرقصن بعض الأغاني، منها هذه الأغنية:

هذا الدواس أيما هذا الدواس أعلاش
الباز خش، العارم خبللها الفراش[37]
هذا الدواس أيما هذا الدواس الليلة
الباز خش العارم خبللها الحميلة
هذا الدواس أيما هذا الدواس البارح
الباز خش العارم خبللها المطارح

هذا الدواس أيما هذا الدواس الفوق[38]
الباز خش العارم خبللها العبروق

في الأغنية السابقة التي ترقص فيها النسوة والتي تقال في الصباح الموالي لليلة الدخلة يلاحظ فيها التصريحات الجنسية التي هي محور هذه الأغنية والتي تشير صراحة إلى العلاقة التي تربط المرأة بالرجل. وفي هذا السياق تؤكد الشواهد الكمية التي جمعناها أن ظاهرة الزواج من الظواهر الاجتماعية التي ألفت حولها عددا كبيرا من الأغاني الشعبية التي ترتبط هي الأخرى بالمستوى الاجتماعي الحضري والثقافي.

كما دلت المعطيات الواقعية أن الألفاظ المستخدمة ومضامينها هي انعكاس لـ: طبيعة البيئة الاجتماعية، طبيعة الأسرة، ودرجة التحضر. وفي الوقت نفسه نجد أن مختلف الوحدات التي شملتها الدراسة تقر بتوارث هذه الأغاني وارتباطها بحياة الجماعة التي تجمعها روابط مشتركة تعكس هي الأخرى الوحدة الثقافية للمجتمع المحلي، أو المجتمعات المحلية للشرق الجزائري المتباعد الأطراف. والظاهرة اللافتة للنظر أن الزواج ظاهرة اجتماعية تمر بمراحل عديدة، لكل منها نمط معين من الأغنية الشعبية المحلية سواء من حيث اللهجة أو الأداء.

وتتأكد هذه الاستنتاجات بمعرفة درجة الارتباط بين الأغنية الشعبية ومستوى الأسرة في علاقته بالتوزيع الإيكولوجي للسكان داخل أي مجتمع حضري. كما تتأكد هذه العلاقة كذلك في وجود بعض التباين داخل الحي الحضري الواحد، ويرجع هذا التباين إلى العنصر الاجتماعي والجغرافي، فضلا عن محددات المكانة الاجتماعية.

ولدينا بعد كل ما سبق شواهد كمية وكيفية إضافية تدعم التفسير القائل بعمومية بعض أنماط الأغنية الشعبية المرتبطة بظاهرة الزواج. وعندما أثرت هذه القضية مع بعض المهتمين بالتراث الشعبي على مستوى منطقة الشرق الجزائري اتضح أن موقفهم من هذه العمومية كان إيجابيا بعض الشيء، رغم التحفظات التي أبداها بعضهم بدعوى الاختلاف الاجتماعي والإيكولوجي وارتباط الأغنية الشعبية بمسألة التراتب الاجتماعي والتحضر. وفضلا عما يتضمنه هذا الموقف من ازدواجية، فإن الشواهد التي حصلنا عليها تميل إلى تأكيدها بنسب مختلفة.

الهوامش

1 ـ سناء الخولي : "الأسرة والحياة العائلة"، دار النهضة العربية , بيروت , ط1 , سنة 1984 ص193.
2 ـ سناء الخولي: المرجع نفسه, ص 194.
3 ـ سناء الخولي : المرجع نفسه , 195.
4 ـ صفوت كمال : "الزواج ومناهج دراسته كظاهرة فولكلورية"، جريدة الجمهورية الجزائرية ,1978.
5 ـ نمر سرحان : "أغانينا الشعبية في الضفة الغربية في الأردن" ، ط1 ، دار الثقافة والفنون الشعبية بوزارة الإعلام، عمان، 68 ـ ص 27 .
6 ـ قبائل قديمة كانت تعيش في ايطاليا.
7 ـ ونا : أنا ، لبحور : البحار
8 ـ نلهط : نبحث

9. كي تتحط للكبرا : كي تقدم للتبجيل
10. مها : أمها
11. حافية : بلاحدود ، اللي : التي
12. زيدو : من الزيادة
13. خياري : المختار عندي
14. مجدد : يتجدد
15. ياحنة يالحنينة ، نضرت : أحمرت ، يدو : يديه
16. خوتو : اخوته ، أجدادوا : أجداده
17. كحلة : سوداء
18. مش : ليست
19. الفال : التطير
20. سايرة : جاءت
21. دايرة : محيطين به
22. العربان : العرب
23. صباع : أصابع
24. أنسابنا : أصهارنا ، سرحونا : دعونا ننصرف ، نروحوا : تنصرف
25. يتحطحوا : يخوروا
26. لمايمة : أمي ، عادت : صارت
27. طلعوا : جاؤا
28. جطوها : وضعوها ، لابات : امتنعت
29. لمايما : أمي
30. لبشامق : نوع من الأحدية ، مجبود : نوع من القماش الرفيع
31. قندرتها الحمرا : القندورة الحمراء
32. بقطفتها : نوع من القماش الرفيع
33. بشورتها : الملابس التي تأتي بها العروس من بيت والدها
34. حوايجها : أدواتها
35. واين : أين ، الحباب لصحاب : الاصدقاء
36. من جانا : من جاءنا ، الذي جاءنا
37. خبللها : خلط لها
38. الفوق : فوق ، العبروق : منديل تضعه المرأة فوق رأسها